الاستشراق ودوره في المشروع الإمبريالي في غرب إفريقيا

د. آدَمَ بَـمْبا
أكاديمـي وباحـث - كـوت ديفـوار - أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، ماليزيا

إنَّ توظيف الاستشراق والعلوم الأخرى في تحقيق أهداف إمبرياليَّة حقيقةٌ تاريخيَّة ماثلة، لا يكاد يختلف حولها الباحثون، سواء في كَوْن الاستشراق حركةً مُمهِّدةً للإمبرياليَّة أو منظِّرةً لأيديولوجيَّاتها، أو أداةً من أدواتها التَّحكُّميَّة في الشُّعوب غير الأوروبيَّة، أو كَوْنها حاضنةً تولِّد أشكالاً وصُوَراً جديدة من الإمبرياليَّة، وتؤمِّنُ تحقيق أهدافها بعد انحسار صورتها العسكريَّة الصَّارخة في القرنَيْن الماضيَيْن، إنَّ الاستشراق - بلا شكٍّ - دعامةٌ مركزيَّة في المشروع الاستعماريِّ.

الدِّراسات في رصد العلاقة بين الاستشراق والاستعمار تكاد تستعصي على الحصر، ولعلَّ منها: دراسات يوهان فوك، الذي أرَّخ للاستشراق بتحديد مراحله وعلاقتها بالمشروع الإمبريالي[١]، ولخَّصها بعض الباحثين في: الاستشراق الاستكشافي، والاستعماري، وما بعد الاستعماري، والاستشراق الجديد، وانهيار الاستشراق[٢]، ومن أشهر الدِّراسات النَّاجحة في بيان الاستشراق بوصفه مُنْتَجاً استعماريّاً غربيّاً بامتياز: دراسات إدوارد سعيد (ت٢٠٠٣م).

وهنا؛ لا يختلف السِّياقُ الإفريقي في الاستشراق عن الشُّعوب الأخرى، غيرَ أنَّ الظَّرفَ الإفريقيَّ يمكن وصفه بأنَّه أكثر عمقاً وشراسةً؛ إذْ هو مُزْدَوَج: عرقيٌّ وديني، أي أنَّ الاستشراق بإفريقيا يحمل سلاحاً ذا حدَّين: حدٌّ يقطعُ الإفريقيَّ عن هويَّته العِرْقيَّة، وحدٌّ آخر يقطعُهُ عن انتمائه العَقدي الدِّيني (الإسلامي خاصَّة).

وإذا كان من المقرَّر عند الباحثين أنَّ فروع العلم (نبات، طبّ، جغرافيا، علوم إنسانيَّة...) جميعها قد صَبَّت في الهدف الإمبرياليِّ التَّسلُّطي، وأنَّ الباحثين الأنثروبولوجيِّين في إفريقيا– كما يقرِّره ماكيتْ (Maquet، ١٩٦٤)–: «قد ساهموا في مختلف أزمانهم، في دَعْم الأهداف السِّياسيَّة والإمبرياليَّة لبلادهم تجاه المجموعات التي قاموا بدراستها»[٣]، فإنَّ المقال الحالي لا يعدو تقديم أمثلة ونماذج من: التَّناغُم الدَّقيق بين الدِّراسات الاستشراقيَّة والاستعمار الإمبريالي، في السِّياق الإفريقي، وبالتَّحديد: الاستعمار الفرنسي بغرب إفريقيا.

المحور الأوَّل: الكشوف الجغرافيَّة والاستشراق:

تعود الحركة الاستشراقيَّة، بوصفها حقلاً علميّاً مكرَّساً لخدمة المشروع الإمبرياليّ، إلى حركة الكشوفات الجغرافيَّة الكبرى التي نشطت منذ أواسط ق١٥م، ولا خلافَ في أنَّ اكتشاف فاسكو دا غاما لطريق رأس الرَّجاء الصَّالح (عام ١٤٩٨م)؛ قد فتح للأوروبيِّين باب استغلال بلاد الهند وآسيا، ولا أدلَّ على أهميَّة الحملات الاستكشافيَّة لقيام المشروع الإمبرياليِّ من تسابُق القوى الاستعماريَّة وتنافسها في تجهيز الأساطيل، وإنشاء الجمعيات والمعاهد المعنيَّة بالكشوفات الجغرافيَّة. كذلك؛ فإنَّ كثيراً من الأفراد الرَّحالة والمستكشفين كانوا على صلة مباشرة بالقوَّة الإمبرياليَّة بوصفهم قواد جيوش أو إداريِّين، أمثال: ليفينغستون (David Livington)، وستانلي (Henry Morton Stanley)، وغالييني (Joseph Gallieni)، وغيرهم كثير.

ومن أدلة هذا الارتباط: لجوؤهم إلى وسيلة جاسوسيَّة، عُرِفت بين المستكشفين والرَّحالة بـ«الجغرافيا الجاسوسيَّة» أو «الجغرافيا المتخفيَّة»، ويعرِّفها الباحثان توماس ونورتون بأنَّها: «طريقة في البحث الميداني؛ حيث لا يكشف الباحثون عن حقيقة أهداف بحوثهم للمجتمعات المحليَّة... وبناءً على الظُّروف؛ فإنَّهم قد يُخفون أو يموِّهون هويَّاتهم الحقيقيَّة، وجنسيَّاتهم، وانتماءاتهم، أو قد لا يُشيرون صراحةً إلى أنَّ ما يقومون به من تحرُّكات إنَّما هي بحوث»[٤].

في هذا السِّياق؛ اشتُهِر الكثير من الرَّحالة الذين كانوا يتجسَّسون على المجتمعات، وبخاصَّة المسلمة، متخفِّين في هُوِيَّات مختلفة، ومنهم: الرَّحالة جون لويس بوخارت (John Lewis Burckhardt، ١٧٨٤-١٨١٧) الذي تنقَّل في بلاد الشَّرق بالاسم المستعار: الشَّيخ إبراهيم بن عبد الله، وتوفي بالقاهرة، وهو صاحب

---

(١) ينظر: يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، بيروت: دار المدار الإسلامي، ط٢، ٢٠٠١م.

(٢) المنصوري، المبروك الشيباني: صناعة الآخر المسلم في الفكر الغربي المعاصر، بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، ٢٠١٤م، ٦٦.

(٣) Lewis, Diane. "Anthropology and Colonialism", CURRENT ANTHROPOLOGY, Vol.14, No.5, 1971, 582-602 (583).

(٤) Thomas, E., & Cheryl Norton. "Geography Undercover", The Geography Review 91 (1-2), January-april, 2001 ,398-388.

الكتـاب الشَّهيـر (رحـلات فـي النوبـة)، ومنهـم إدوارد هنـري بالمـز (Edward H. Palmer، ١٨٤٠-١٨٨٢)، وكان اسمـه المستعـار الشيـخ عبـد الله، وكانت مهمَّتُـه الأساسيَّة إفشـال حركة عرابي باشـا الثَّوريَّة ضدّ البريطانيِّيـن، ورشوة البدو لتـرك مناصرته. أيضاً منهم: الرَّحالـة الإنجليـزي غيفـورد بالْغـراف (William Gifford Palgrave، ١٨٢٦-١٨٨٨) بسوريـا، تظاهر بزيِّ طبيـبٍ نصرانيٍّ سوري، واتَّخذ الاسم: سالين أبو محمـود الآيس، وهـو صاحب تقاريـر تجسُّسيَّة قدَّمها لنابليون فـي غارته على سوريا ومصـر. ومن الجواسيس: شـارل داوتـي (Charles Doughty، ١٨٤٣-١٩٢٦) صاحـب كتاب (رحلات في الصَّحـراء العربيَّة)، واتَّخـذ الاسم «خليل» فـي تنقُّلاته في البـلاد الإسلاميَّة. ومـن النِّسـاء الشَّهيـرات: غيرتـرود (Gertrude Lowthian Bell)، وكانت من جاسوسات بريطانيا، توفيت ببغداد (١٩٢٦م)[١].

هـذا، وفي فترة متأخِّرة، أصبح التَّجسُّس صناعةً بين الإمبرياليِّين أنفسهم؛ في ظلِّ تكالُبهم على الشُّعوب.

أمَّـا فـي السِّيـاق الإفريقـيِّ خاصَّـة؛ فقد عُـرف من الرَّحالة الجواسيـس: الكابتن سير ريتشارد بورتون (Sir Richard Burton، d.١٨٨٢)، أوَّل أوروبي توغَّل عـام (١٨٥٤م) داخل الحصن الإسلامـي «هرر» عاصمة الصُّومـال آنـذاك، متخفيّـاً فـي زيِّ تاجر عربـي، بفضل معرفتـه باللُّغـة العربيَّـة، ورَسَـمَ خطَّـة الحصـن ومواقع الأسلحة، وقاسَـ أطوال الممرَّات وأجـزاء الحِصْن بدقَّة، وأخفـى كلَّ ذلك في صورة فراشة. كما جاب منطقة وسط إفريقيا في رحلاته للبحث عـن منبع النيل، استخدم فيها الكثير من مهارات التَّمويـه والتَّخفي، واستخدم المهارات نفسها عام (١٨٥٣م) في رحلته الشَّهيرة إلى مكَّة والمدينة متخفِّياً في زيِّ طبيـبٍ أفغاني، وتُعدُّ تقاريره عن الحرمَيْن أدقَّ وصف، وقد كان بورتون يعمل لحساب الجمعيَّة الملكية الجغرافيَّة البريطانيَّة.

من الرَّحالـة الإمبرياليِّيـن الذين اتُّهمـوا بالتَّجسُّس بغرب إفريقيا: هنريث بـارث (Heinrich Barth، ١٨٢١-١٨٦٥)، الـذي جـاب شمـال إفريقيـا ووسطهـا فـي غضـون خمـس سنـوات (١٩٤٥-١٩٥٤م)، وقطـع (١٦,٠٩٣كـم) في الصَّحـراء، وقد طاف حينـاً بمنطقة تمبُكتو مدَّعياً أنَّه من الشُّرفاء؛ فحَظِي بالاحترام، وقصَدَهُ النَّاس للتَّبرُّك! كما ادَّعى في موقفٍ أنَّه تركيٌّ؛ لكنَّه أُسْقِط فـي يده حيـن حدَّثـه أحـدُ المشايـخ بالتُّركيَّـة[٢]، ولغلبة الشُّـكوك في أمـره حَبَسَه أميـر «ماسنة»، غيـر أنَّ الفقيه الشَّيـخ أحمد البكائـي أَمَرَ بالإفراج عنـه؛ لكونه في حكم الذِّميِّيـن[٣]، على كلٍّ؛ فإنَّ بـارث يُحمَدُ له إنصافه الثَّقافة الإفريقيَّة واحترامه لها أكثر من غيره من المستكشفين[٤].

كان الزُّعمـاء المسلمـون بإفريقيـا يتوجَّسـون أيضاً مـن الرَّحالـة كلابرتـون (Hugh Claperton، d.١٨٢٧)، فقـد كتـب حاكـم بورنو إلى محمـد بيلو في صكوتـو يحـذِّره منـه، ويصفـه بأنَّـه: جاسوسٌ لصالـح بريطانيا، وكذلك حذَّر بيلو أميرَ ماسنة (سيكو أحمد) من المستكشف ألكسندر (Alexander Laing)[٥].

وإجمـالاً: فـإنَّ «استعمـار إفريقيا في أولـى مراحله، مرتبـطٌ ارتباطاً وثيقـاً بالكشوفات الجغرافيَّـة»[٦]، بل إنَّ فرنسـا، بعد أن أحكمت قبضتها فـي غرب إفريقيا، اقترح حاكمُها كلوزيل: تأسيس شرطة خاصَّة بالمسلمين من أجل

(١) ينظر: حسين، آصف: صراع الغرب مع الإسلام: استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب، الرياض: دار الوعي للنشر والتوزيع، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص (٤٩-٦٢).

(٢) Barth, Heinrich.Travels and Discoveries in North and Central Africa, Drallop, -publishing Company, 1857, Vol.4, 404 .405

(٣) ينظر: بمبا، آدم: النزاعات الأهلية في إفريقيا.. قراءة في الموروث السلمي الإسلامي، الخرطوم: منظمة الدعوة الإسلامية، ط٢، ٢٠١٥، ص١٦٨.

(٤) Sirvatis, Karen, Exploring Deserts, .ABDO Publishing Company, 2014, 40

(٥) Dane, Kennedy. The Last Blank Spaces, .Harvard University Press, 218

(٦) Harry H. Johnston. A History of the Colonization of Africa by Alien Races, .Cambridge University Press, 2011, 297

التَّجسُّس على العلماء والأئمَّة، ورصد تحرُّكاتهم[1]؛ أي أن يتطوَّر التَّجسُّس إلى عمليَّة مُمَنْهجة.

ومما يكشف التوجّهات الإمبرياليَّة الأولى لأولئك المستكشفين، والتَّناغم التَّام بينهم وبين القوى العظمى، مسارعتهم إلى إطلاق الكثير من أسماء المناطق الأوروبيَّة التي وفدوا منها على المناطق التي جابوها، وقد تكلَّل ذلك فيما بعد بإطلاق أسماء مُدن ومناطق أوروبيَّة وأسماء مستكشفين أو إمبرياليِّين على دُوَلٍ إفريقيَّة بأكملها في فترة الاستعمار، وبعد الاستقلال، على سبيل المثال: أطلقت ألمانيا على مواقع نفوذ لها: New Baden، New Saxony، New Bavaria etc.، وأطلقت فرنسا على عموم غرب إفريقيا مسمَّى (Afrique Occidentale Francaise)، وجُزر موريشوس هي اسم المُستعمِر (Maurits Van Nassaueiland، d ١٦٢٥)، وأُطلِق على بلاد شونا اسم المُستعمِر الإنجليزي (Cecile Rhodes، d ١٩٠٢)، فأصبحت (Rhodesia)، الذي غُيِّر فيما بعدُ إلى زيمبابوي، ومثل ذلك يُقال في كاميرون، ومدينة برازافيل، وليوبولدفيل، وبِنزرْفيل، وغيرها، وكذلك مواقع كثيرة سارع المستكشفون إلى إطلاق أسمائهم عليها (بُحيرة «فيكتوريا»؛ اسم ملكة بريطانيا)، وكأنَّ تلك المواقع لم تُعرف إلا بوصول المستكشف الغربي إليها!

لقد أسهم الرَّحالة في تشكيل رؤية مُغرِضة مغلوطة عن الشُّعوب، وفي تكوين العقل الأوروبي وتهيئته من أجل دَعْم المشروع الإمبريالي، وفي هذا الإطار تمَّ رَسْم صورة نمطيَّة سلبيَّة عن «الآخر» في الذِّهنيَّة الأوروبيَّة، تعزَّز عند الأوروبيِّ النَّظرة الدُّونيَّة إلى الشُّعوب الأخرى، وبخاصة الأفارقة، وتكريس رؤية التَّمركز الأوروبي (Euro-Centrism)، وتنزع عن الآخر كلَّ حقٍّ له في الكرامة البشريَّة.

ومن الإنصاف؛ الإشارة إلى بعض النتائج الإيجابيَّة للكشوف الجغرافيَّة، مثل: إسهامها في تقدُّم العلوم الجغرافيَّة، واكتشاف ثروات طبيعيَّة، ولكنَّها استُغلَّت استغلالاً وحشيّاً؛ فآلت إلى أضدادها.

المحور الثَّاني: الأنثروبولوجيا والاستشراق:

إذا كانت حركة الكشوف الجغرافيَّة قد مثَّلت النَّشاط الحركيَّ الممهِّد للحملات الإمبرياليَّة؛ فإنَّ الدِّراسات الاستشراقيَّة الاجتماعيَّة، قد مثَّلت البنية التَّحتيَّة الفكريَّة للإمبرياليَّة، وذلك في العلاقة العضويَّة الواضحة بين الدِّراسات الاجتماعيَّة (الأنثروبولوجيا خاصَّة) والخُطط والقرارات الاستعماريَّة، ولعلَّ الباحثين لم يغالوا إذْ وصفوا «الأنثروبولوجيا» بأنَّها «وليدة الإمبرياليَّة».

ومنشأ العلاقة بين الاثنَيْن أنَّ القوَّة الاستعماريَّة قد وفَّرت دائماً الدَّعم الماديَّ والحماية اللاَّزمة، وميدان العمل للدَّارسين الأنثروبولوجيِّين؛ بينما وفَّر أولئك للمُستعمِر المعطيات الضَّروريَّة لإحكام سيطرته على الشُّعوب، والمسوّغ الفكري والأيديولوجي والعلمي له في اتِّباع سياسته، وساعدوه في معرفة نقاط القوَّة والضَّعف في الشُّعوب للتَّحكم فيها.

في السِّياق الإفريقي تحديداً؛ تعدُّ فرنسا أكثر المستعمِرين اهتماماً بالدِّراسات الأنثروبولوجيَّة، وقد راجت بها تلك البحوث في العقود الأخيرة من ق١٩م (١٨٧٠م)، فتمَّ إنشاء مدرسة الأنثروبولوجيا بباريس (١٨٧٦م)، ومتحف تروكاديرو للسُّلالات (١٨٧٨م)، وكانت تُعرف بالدِّراسات الإثنوغرافيَّة. وقد كُتبت في تلك الفترة، إلى ما قبل الحرب العالميَّة، معظم البحوث الأنثروبولوجيَّة على أيدي القادة والحكام الفرنسيِّين بمستعمرات فرنسا؛ من أمثال: جوزيف فرانْسُوا كلوزيل الحاكم العام بإفريقيا الغربيَّة الفرنسيَّة (١٩١٥م)، وزميله موريس دولافوس مؤسِّس معهد السُّلالات العالمي بباريس (١٩٠١م)، وهو الذي قضى أكثر من عقدَيْن من الزَّمن في دراسة مجتمعات غرب إفريقيا والإسلام، ونشر نتائج بحوثه في كُتُبٍ لا تزال تعدُّ أهمَّ المرجعيَّات إلى الآن.

ومن الموضوعات التي دَعَم بها الباحثون الأنثروبولوجيّون المشروع الإمبريالي:

(١) Christopher, Harrison. France and Islam in West Africa, 1860-1960, Cambridge University Press, 2003, 101.

أ- الأعراق الكولونياليَّة:

يُعدُّ موضوع «الأجناس الكولونياليَّة» موضوعاً محوريّاً في الدِّراسات الأنثروبولوجيَّة الفرنسيَّة؛ وفيه ركَّز الأنثروبولوجيُّون على وضع الفروق القاطعة بين المجموعات الإفريقيَّة، مكرِّسين في ذلك فكرة اختلاف الشُّعوب الإفريقيَّة في أصولها وثقافاتها. وكان المشروع خطوة ممهِّدة لتفتيت المجموعات بإفريقيا، وإحداث تخلخُلٍ ديموغرافيٍّ في المستعمرات، يقضي على كلِّ بادرة مقاومة، وعلى كلِّ شعورٍ بالوحدة بين الأفارقة.

أمَّا التَّطبيق العملي لنتائج هذه الدِّراسات الأنثروبولوجيَّة؛ فقد جرى تحت ما يُعرف بـ«سياسة الأعراق»، وبها تمَّ تهجير مجموعات من أراضيها، أو انتزاع موارد من مجموعة إثنية لصالح أخرى، أو تفضيل مجموعةٍ بمزيَّة استعماريَّة دون غيرها.

ومن أمثلة دعم الأنثروبولوجيِّين لسياسة الأعراق: دراسات الباحث شارل م. (Charles Maclaudd) عام ١٩٠٦م في غينيا، التي زعم فيها: أنَّ التَّوزيع الدِّيموغرافي في هذه المنطقة غير متوازنٍ، وأنَّ القبائل متحاربة، وأنَّ «الكولونياليَّة» وحدها كفيلة بإيقاف التَّناحر القَبَلي، وعليه؛ اقترح إعادة تركيب القبائل؛ بتهجير بعضها إلى مناطق قبائل أخرى، وصهر بعضها في بعض؛ لإيجاد أعراقٍ جديدة[١].

ب- الفرضيَّة الحاميَّة:

وروّج الدَّارسون الأنثروبولوجيُّون، دعماً للأهداف الاستعماريَّة، ما أطلقوا عليه: «النَّظريَّة الحاميَّة»، يزعمون أنَّ كلَّ تطوُّرٍ بـ«القارة السَّوداء» إنَّما هو من تأثيرٍ أجنبيٍّ ساميّ، بدءاً بحضارة مصر القديمة والحبشة وزيمبابوي الكبرى، والممالك العظمى، وجهد الأنثروبولوجيُّون في ربط أصول مجموعاتٍ إثنيَّة إفريقية بالسَّاميِّين، وأنَّها أكثر ذكاءً وأرفع قَدْراً من غيرها[٢].

ومن أخطر توظيفات هذا الطَّرح العنصري: قيام بلجيكا في رواندا وبوروندي بتوزيع القبائل إلى «حاميّة» في مقابل «بانْتُويَّة»، وتصنيف التُّوتسي إلى «حاميّة» ذات أصولٍ «ساميَّة» يهوديَّة عالية، ووصفهم بأنَّهم أذكياء «قادة بالأصالة»، بينما الهوتو «وضيعة»[٣]، وتمَّ تأكيد هذا الزَّعم عبر دراسات تاريخيَّة أنثروبولوجيَّة[٤]، وأكَّدها قساوسة؛ لأنَّ هذا الزَّعم كان يخدم المهمَّة التَّنصيريَّة[٥]، غير أنَّ نَتيجة هذا الزَّعم: عداءٌ مُزمن وحروبٌ مدمِّرة بين التُّوتسي والهوتو.

ومن المجموعات التي نُسبتْ إلى «الحاميِّين» أيضاً «الفولاني»، زَعَمَ ذلك دولافوس، الذي أرجَعَ أصلهم إلى يهود هكسوس في سوريا[٦].

أمَّا فرنسا خاصَّة؛ فإنَّها قد وظَّفت هذا الزَّعم في جميع مستعمراتها، ففي الجزائر مثلاً: زَعَمَ الباحثون أنَّ البَرْبَر أكثر قرباً إلى الجنس الأوروبي من العرب، ومن ثَمّ فَهُم أكثر تحضُّراً من العرب، وعُرف ذلك بـ«أسطورة الأمازيغ»، وبالمثل حين توغَّلت فرنسا جنوب الصَّحراء، استخدمت الأسطورة نفسها فيما أطلق عليه الباحث باندولْفي (Tuareg Myth)، وهو زَعْمهم أنَّ الطَّوارق من أصولٍ شرقيَّة يهوديَّة، وأنَّهم من ثَمّ أكثر تحضُّراً وأرفع عقلاً من الزُّنوج[٧]، ولا تزال تلك السِّياسة تُشكِّل العلاقة بين الطَّوارق ومواطنيهم.

---

(١) Sibeud, Emmanuel. “A Useless Colonial Science? Practicing Anthropology in the 1960-French Colonial Empire circa 1880,” CURRENT ANTHROPOLOGY, Vol53, No.55, 2012, 583-594.

(٢) Ki-Zerbo, Joseph. Methodology and African Prehistory, UNESCO, 1981, 272.

(٣) Gerard, Prunier. The Rwanda Crisis 1954-1994: History of Genocide, (C. Hurst & Co. Publisheres, 1995), 33.

(٤) Josias, Semujanga. The Origins of Rwandan Genocide, (New York: Humanity Books, 2002), 139.

(٥) Joseph, Gahama. Le Burundi sous Administration Belge, (Karthala, 2nd. ed. 1983), 285.

(٦) Delafosse, M. Haut-Senegal Niger, Paris, 1912.

(٧) Bruce, S. Hall. A History of Race in Muslim West Africa, 2011, 113-114.

هـذا، ولا يخفـى أنَّ «فرضيَّة» «الأصـل الحامي» التي أطلقـوا عليها «نظريَّـة»، كانت تخدم الحركـة الإمبرياليَّة في تقديم أساس أيديولوجيٍّ لأفعال الأوروبيِّين في القارة، وتسويغ تجـارة الرَّقيق خاصَّة، كما أنَّ المنصِّرين وظَّفوها لتسويـغ النشاطات التَّنصيريَّة؛ مـا دام أنَّ بعض الأفارقة من أصولٍ يهوديَّة؛ فـإنَّ النَّشاط التَّنصيريَّ بينهم إنَّما هو لإعادتهم إلى دينهم الأصل[١]، هذا ما أفصح عنه مجموعةٌ مـن كرادلـة الفاتيـكان عـام (١٨٧٠م)، حين دعـت إلى حملـة إنقاذ بوسط إفريقيا؛ لنجـدة «الحاميِّين المغلوبين علـى أمرهم بين أظهُر الزُّنوج»، ومـن أجل «تخفيف وطأة اللَّعنة القديمة على عواتق الحاميِّين القاطنين بين الزُّنوج الميؤوس منهم»[٢].

ومـن النَّتائـج السلبيـة المباشرة التـي أسفرت عنها الدِّراسات الأنثروبولوجيَّة الاستشراقيَّة:

- أنَّ الأنثروبولوجيِّين قد قدَّموا للمُستعمِرين الأفكار الضَّروريَّـة التـي وظَّفوها فـي وضع الخطـط والقرارات، وطرق التَّحكُّم في الزِّعامـات الإفريقيَّة، واحتواء الشُّعوب ثقافيّـاً. وكمـا يوضِّحـه الباحـث ميمـي (Memmi، ١٩٦٧:٧١)، فإنَّ الأنثروبولوجيِّين قد فتحوا قنوات أحاديَّة الاتِّجـاه بيـن ثقافتَي المُستعمِـر والمُستعمَـر: (أ) فجعلوا ثقافـة الغرب هي المطَّلعـة الوحيدة على ثقافـة الشُّعوب. بالمقابل؛ قاموا بتقديم مفردات ثقافة الغرب إلى الشُّعوب بالصـورة التـي تريدها هي. (ب) وأعطـوا للغرب مفاتيح استغـلال تلـك القنـوات الثَّقافيَّـة لإحـكام سيطرته على أصحاب الثَّقافات المكتشَفة.

- تصديـر الأوهـام والأباطيـل التـي تؤلّـه الرَّجـل الأبيض، وتضرب هالة مزَّيفة حوله، مثل: «الرَّجل الأصفر يعيش في الماضـي، والأسْوَد في الحاضر، والأبيض يعيش في المستقبل»، وتصنيفهم الأجناس إلى أطفال وراشدين، وفَعَلـة وسـادة، وترويجهـم لأكذوبة عبء الرَّجـل الأبيض ورسالتـه الحضاريَّـة، وأنّ الجنـس الإفريقـي: متوحِّش، بدائـي، متخلِّف، يتصرَّف تصرُّفـاً طفوليّاً، ليس لديه قِيَمٌ أخلاقيَّة مرجعيَّة، وإنَّما يتصرَّف بالعاطفة.

أمَّـا الأرض الإفريقيَّة: فروّجوا أنهـا أرضٌ بلا تاريخ، أو بالأحـرى بـلا تاريـخ من صُنـع أهلها، وهذا مـا سوّغ- كمـا يؤكِّـده الباحـث ماكيـتْ (Maquet، ١٩٦٤)- للمُستعمِريـن حملتهـم الاستعماريَّـة[٣]، بالإضافـة إلـى متواليـة من الأوهام، مثل: الزَّعـم بأنَّ مهمَّة الأوروبي هي: نشـر الدِّيمقراطيَّـة، والدِّفاع عـن حقوق الإنسـان، وغير ذلك.

- أنَّ الأنثروبولوجيِّين قـد شاركوا المُستعمِر مشاركةً مباشـرةً فـي استغـلال إفريقيا وغيرها مـن المجتمعات، يوضِّح الباحث غالْتونْغ (Galtung) ذلك بالقول: «إنَّ الباحثين قد أعطوا أنفسهم حقّاً غير محدود؛ للوصول إلى أيِّ معلومة من أي نوع كانت. تماماً مثلما يُعطي الكولونياليّ نفسـه الحـقَّ فـي الاستيـلاء علـى أيِّ مصدرٍ تجـاريٍّ في الأرضِ المُستعمَـرة»، فلا فَـرْقَ بين الاستغـلال التِّجاريِّ للمـواد الأوليَّـة فـي الأرض المُستعمَـرة وبيـن استغلال مصـادر المعلومـات بها، وقد أطلـق على هـذا التَّصرُّف مصطلح «كولونياليَّة علميَّة»[٤].

المحور الثَّالث: الاستشراق الإفريقي والإسلام:

للإسـلام ومجتمعاتـه مكانـةٌ خاصَّةٌ فـي الدِّراسات الاستشراقيَّـة؛ لما يمثِّله بعقيدتـه وشرائعه ومُثُله من تحدٍّ لتوجهات المُستعمِرين الاستغلاليَّة الاستعباديَّة.

ويتأكَّـد الاهتمـامُ الاستشراقيُّ بالإسـلام في السِّياق الفرنسـيِّ؛ لكَوْن مستعمرات فرنسا بإفريقيا- إلاَّ ما ندر- مسلمةً: من الجزائر حتى غينيا غرباً، وقد جاء تأكيد هذا فـي مقولة الحاكم الفرنسيِّ العـام بالسنغال ويليام بونْتي: «إنَّ مـن واجبنـا دراسة المجتمع المُسلم فـي مستعمراتنا

(١) Patrick Harries (ed), The Spiritual in the Secular: Missionaries and Knowledge about Africa, W. B. Eerdmans Publishing, 2012, 164.

(٢) Binyavanga, Wainaina (ed), Kwani? Vo.1, Kwani Archive Online, 2005, 44.

(٣) Lewis, “Anthropology and Colonialism”, Op. Cit., 583.

(٤) Galtung, Johan. Theory and Methods of Social Research, Columbia University Press, 1967, 296.

بكلِّ تفاصيله (...)، سوف نجد في هذه الدِّراسة الأُسس الثَّابتة والتَّوجُّهات الأكثر ملاءمةً لخُططنا وقراراتنا تجاه المسلمين»[١].

عليه؛ فقد هبَّ كثيرٌ من رجالات الاستعمار الفرنسيِّ إلى دراسات مستفيضة عن المسلمين، منها: دراسات لويس رين عن الإسلام بالجزائر[٢]، وكوبولاني عن الجماعات الصُّوفية[٣]، ومن الدِّراسات الأولى بغرب إفريقيا دراسات كرير عن مسلمي سنيغامبيا (De la Senegambie Francaise، ١٩٠٥). ووضع أرنولد ومذكِّرة قانون عن سياسة المسلمين بغرب إفريقيا (Arnauld R. Precis de politique musulmane، ١٩٠٦). ودراسات كثيرة على أيدي الإداريِّين أو العسكريِّين الفرنسيِّين، أمثال: فرانسوا كلوزيل، ودولافوسّ، وبريفيير (J. Brévié)، وبولّ مارّتي، وهذا الأخير يكاد يكون أشهرهم، وكما يقول الباحث بانْغورا؛ فإنَّ كتاباته «قد ساهمت كثيراً في تشكيل الرُّؤية الفرنسيَّة عن الإسلام بإفريقيا»[٤]. ودراسات الحاكم العامّ فيديرب (Louise Faidherbe، ١٨٨٩)، وهو صاحب أبحاثٍ أنثروبولوجيَّة أوليَّة عن المسلمين بمنطقة سنيغامبيا.

ويمكن الوقوف عند معالم الدِّراسات الاستشراقيَّة الفرنسيَّة في غرب إفريقيا في ثلاث نقاط:

أوَّلاً: الإسلام وثقافته:

قام الباحثون الأنثروبولوجيُّون الاجتماعيُّون بدراسة المجتمعات الإفريقية بغرب إفريقيا، وكان لا بدَّ لهم من التَّعرُّض للإسلام ومظاهره في تلك المجتمعات، وقد فعلوا؛ ولكنْ بطريقة مغايرة عكسيَّة، وذلك تحت مفهوم «الإسلام الأسْوَد» (Islam Noir)[٥]، وهو مصطلحٌ وضَعَه «بول مارتي»، وملخَّص فكرته: أنَّ الإسلام بإفريقيا ينتمي إلى الرُّؤية الإفريقيَّة التَّقليديَّة، والعادات والدِّيانة الإفريقيَّة القديمة، أكثر من انتمائه إلى الأصل المعروف المتوارث عن الجزيرة العربيَّة، وهذا الاختلاف– في زعمهم– عميقٌ واسع: في العقائد والعبادات والمعاملات، وفي الرُّؤية الكليَّة عن الكون والحياة[٦].

على سبيل المثال؛ يزعم ألفونس غويي: أنَّ مفهوم وحدانيَّة الله في «الإسلام الأسْوَد» مغايرٌ تماماً له في «الإسلام الأرثوذكسي»؛ فيقول: «إنَّ الإسلام الأسْوَد يبتعد عن مفهوم الله كما صوَّره القرآن، ليصبَّ في هذا القالب المضطّرب المؤمن بوحدة الوجود الذي يمثِّل معتقدات الأفارقة»[٧]، من وسائلهم لتأكيد فكرة «الإسلام الأسْوَد»: إبراز المظاهر الوثنيَّة في بعض المجموعات؛ رغبةً في التَّستُّر على المظاهر الإسلاميَّة الموغلة في ثقافتها، على سبيل المثال قام الباحثان غريولّ وجيرميْنّ بدراساتٍ مستفيضة عن علوم الفلك والكَونيَّات عند مجموعة دوغونّ (Dogon) شرق مالي، مع تحاشي الإشارة إلى حاضرة بانْجاغارا الإسلاميَّة الواقعة وسط بلاد دُوغونّ. وفي دراساتٍ عن الدِّين بين يوربا؛ صرَّح الباحثون بعدم التَّعرُّض للإسلام والمسيحيَّة، على الرَّغم من أنّ تعداد

(١) Harrison, 107, in: The Gale Group, Inc. New Dictionary of the History of Idea, 2005.

(٢) Louis Rinn, Marabouts et Khwan: Etudes sur l'Islam en Algerie, 1884.

(٣) Xavier Coppolani et O. Depont. Les confreries religieuses musulmanes, 1897.

(٤) Bangura, Ahmed S. Islam and the West African Novel: The Politics of Representation, Lynne Rienner Publishers, 2000, 11.

(٥) Monteil, Vincent. L'Islam Noire: Une Religion a la Conquete de l'Afrique, (Paris: Seuil, 3e. edition, 1980.

(٦) Quimby Lucy, Gardner. Transformations of Belief: Islam among Dyula of Kongbougo, University of Wisconsin, 1972, 123.

(٧) Gouilly, Alphonse. L'Islam dans l'Afrique Occidentale Francaise, (Paris: Editions Larose, 1952), 177.

المنتمين إلى الدِّيانـة التَّقليديَّة، في المناطق التي غطتها الدِّراسات، لا يتعدَّى: (٦ إلى ٢٠٪)[١].

تجـدر الإشـارة إلـى: أنَّ السَّبـب المباشـر في ظهور فكـرة «الإسلام الأسْوَد» هـو المقاومة المسلَّحـة الشَّرسة التي واجهتها فرنسا بالجزائر، وكان الإسلام هو المحرِّك لهـا، وحين جاءت فرنسا إلى بـلاد غرب إفريقيا، ووجدت الإسـلامَ قـد تغلغـلَ فـي النَّسيـج الاجتماعـيِّ والثَّقافـيّ لشُعوبهـا، حاولت الالتفـاف على الإسـلام بوسيلةٍ أخرى. بالإضافـة إلى ذلك؛ فـإنَّ الارتباط بين مفهـوم «الإسلام الأسْـوَد» والتَّرويـج الاستشراقـي للعصبيَّـات والعِرْقيَّـات ارتبـاطٌ واضح؛ فقد تمَّ إطلاق هـذا المفهوم للقطيعة بين مسلمـي إفريقيـا جنوب الصَّحراء وشمالهـا، حيث زعموا أنَّ الإسـلام المغاربـيَّ متعصِّب عدوانـي، بينما «الإسلام الأسْوَد» مسالم.

فـي هـذا السِّيـاق؛ نجـد أنَّ المبعـوث الفرنسـيّ إلى بـلاد السُّودان الغربيِّ آنـذاك، ويليام بونتي، قد أفاض في التَّحذير ممَّـا أسماه «التَّأثير المغربـي» (influence maghrebine) فـي إفريقيا الغربيَّـة «الفرنسيَّة»، وبنـاءً على توصياته؛ عمدت فرنسـا إلى تأسيس «مصلحة للشُّؤون الإسلاميَّـة» لصدِّ هذا التَّأثير[٢]، وقد أكَّد الحاكمُ الفرنسـيُّ فيديـربّ هـذا الإحباط الفرنسي فـي وجه هذا التَّقارُب، بين بلاد المغرب وشعوب إفريقيا، في خطابٍ له (عـام ١٨٦٠م)، قال: «يا شعـبَ السِّنغال؛ إنَّ معظمكم قد ورث ديانـة العرب عن آبائكـم، ونحن لا نعارض ذلك، وإنْ كنَّا نأسـفُ له من أجل مصلحتكم أنتـم. وعلى الرُّغم من ذلك؛ فإنَّكم لستُم مُلْزَمين بتاتاً باتِّباع العرَب في عاداتهم وتقاليدهـم وفي قِيَمهم، وفي جهالاتهـم. فلا تذهبوا عند المـورّ للبحث عن مُثُلكم ونماذجكـم الفكريَّة، بل تجدونها عندنا، نحن المحبِّين للسَّلام والنِّظام»[٣].

ومـن القـادة العسكريِّيـن والإداريِّيـن الذيـن عملوا بالجزائـر، وتمَّ نقلهم إلى غرب إفريقيا لتطبيق «السِّياسة الاستيعابيَّة» القائمة على فكرة «الإسلام الأسْوَد»: كوبولاني ودوبـون (Xavier Coppolani، Octave Depont)[٤]، وهـي احتواء المسلميـن عَبْر زعمائهم من مشايخ الصُّوفيَّة والنُّخب المسلمة.

ثانياً: في التَّاريخ:

توجّـه هـؤلاء الباحثـون أيضـاً إلـى تاريـخ الإسلام بمنطقة غرب إفريقيا، وتاريخ الممالك العظمى بها (غانة ومالي وصونغاي)، وعَمَدُوا إلى تشويهه، ومن ذلك:

أ- الزعـم بـأنّ الإسلام دين بلاط وطقوس: بما أنَّه لا سبيل إلـى الزَّعم بأنَّ الإسلام قد انتشـر بإفريقيا بحدِّ السَّيـف، فإنَّ ذلك قد عُوِّض بزعـم: أنَّ الإسلام كان ديناً حبيسـاً في القصـور، وكان في خدمة الملـوك والمشايخ، وأنَّـه لم يتعـدَّ مستـوى الطُّقوس والممارسـات السِّحريَّة ليتغَلْغَـل في العُمق الفكـريِّ والثَّقافي للشُّعوب. ومن وسائل تأكيد هذا الزَّعم الماكرة: التَّستُّر على العلاقات التَّاريخيَّة العميقة بين غـرب إفريقيا وبين العالَم المجاور في شمال إفريقيـا والجزيرة، وكما يوضِّـح الباحث ماهر صولْ؛ فإنَّ ذلـك محاولة للتَّأكيد «أنَّ إفريقيا لم تدخل التَّاريخ إلاَّ عبر الكشوفات الأوروبيَّة»[٥].

ب- تشويـه صـورة الممالـك الإسلاميَّـة وزعمائها: تـرد حملـةٌ تشويـه مُمَنهَجة فـي مؤلفاتهم ضـدَّ الممالك والزِّعامـات الإسلاميَّة، وبخاصَّـة تلك التي وقفت في وجه الإمبرياليَّـة، فتوصـف بأوصاف طائفيَّـة قَبَليَّة، فالخلافة الصُّكتيَّة، التي أسَّسها الشَّيخ عثمان دان فوديو، ما هي في نظـر هنريت بارث إلاَّ تمـرُّد عِرْقيٌّ من لـدن الفولبي ضدَّ

---

(١) Lloyd, P.C. “The Yoruba of Nigeria”, in: Peoples of Africa, edited by: J. L. Gibbs Jr., 547-582, New York: Holt, R. and Winston, 1965.

(٢) Sambe, Bakary. “L’Islam dans les relations Arabo-Africaines”, http://www.geocities.ws/bonbeau40/islaminter.html.

(٣) Jean de la Gueriviere, «Les multiples visages de l›Islam noir», Geo-politique Africaine, No.5, (2002).

(٤) أحمد أمل: الإثنية والنظم الحزبية، القاهرة: المكتب العربي للمعارف، ٢٠١٥م، ص١٢٥.

(٥) Saul, Mahir. “Islam and West African Anthropology”, AFRICA TODAY, No.53, 1-33, 2006.

هيمنـة هَوْسا[١]، وهي في رأي هوغْبنْ في كتابه (الإمارات المحمديَّة بنيجيريا)[٢] ثورةٌ تخريبيَّة قام بها الفولاني، أو صراعٌ عِرْقيٌّ سياسيٌّ في رأي بوفيلْ[٣] وهودغنْ[٤]. وتوصف الحركـة الجهاديَّـة بزعامـة الشَّيـخ عمر الفوتـي بمملكة توكولورْ، والمجاهد ساموري توري بثورة مالينكي[٥]، وكأنَّ تلك الممالك كانت شأن قبيلةٍ وحدَها.

ج- تضخيـم بعض الأحـداث وتهميش أخـرى مهمَّة: كتضخيـم تجارة الرِّق فـي الشَّرق الإفريقـيِّ- مثلاً- على أيدي العرب، وتلك محاولةٌ واضحةٌ للتَّقليل من شأن تجارة العبيـد عبـر الأطلسيّ، بـل لإظهـار المُستعمِر فـي صورة أبطال فاتحين، جاؤوا لتخليص الأفارقة من الرِّق العربيِّ.

ثالثاً: في الأدب والنَّقد:

كان الأدبُ والفـنُّ حقلاً فسيحاً، جالتْ فيه الدِّراسات الاستشراقيَّـة وصالـت، ويظهـر عمـق التَّناغـم بين تلك الدِّراسات والمشروع الإمبرياليِّ في المحاور الآتية:

أ- الأدب الاستعمـاري: ظهـر حقـلٌ دراسـيٌّ باسـم «الأدب الاستعماري»، كان من أشهر رواده الكاتب الفرنسي رولانـد ل. (Roland Lebel، ١٨٩٣-١٩٦٤)، الـذي صرَّح بالهـدف الاستعماريِّ لهـذا الأدب في مقدِّمة مجموعـة مختـارة مـن الأدب الإفريقـيِّ، أنَّهـا «تتضمَّـن قيمـةً إثنوغرافيَّة معبِّرة عن نفسيَّـات الأعراق في المجال الاستعماريِّ، (وتلك) معرفةٌ ملزمة لهيمنتنا»[٦].

ب- الفولكلـور الشَّعبـي: يظهـر البُعـد الاستشراقـي الكولونيالـي في الاهتمام الشَّديـد بالأساطير والقصص، وإظهـار ملامحهـا الوثنيَّـة، وكان القساوسـةُ روَّادَ جمـع الحِكَم والأمثال والأشعار الإفريقيَّة، وإدراجها في الدُّروس المسيحيَّـة. كذلـك؛ فإنَّ دراسـة اللُّغـات الإفريقيَّة ووضع قواميـس لكلماتهـا، وكتابتهـا بحـروف لاتينيَّـة، وترجمة الكتاب المقدَّس إليها.. كلُّ ذلك يصبُّ في خدمة المشروع الاستشراقيِّ.

وهنـا يتـمُّ تجاهـل النَّمـاذج الأدبيَّـة ذات التَّأثيـر الإسلامـي الواضـح، وحيـن يُواجَـه الباحثـون بنمـاذج تستعصـي على الإنكار؛ فإنَّهم يلجـؤون إلى تأويلاتٍ بعيدة للرُّمـوز الإسلاميَّـة في تلك النَّمـاذج الأدبيَّة، نجد ذلك- مثـلاً- في القـراءات النَّقديَّة حول روايـة (نظرة الملك) (Le Regard du Roi) للكاتـب الغينـي كمـارا لايْ، إذْ فسَّـر النُّقـاد المستشرقـون، أمثال (Jaheinz Jahn) و (Eustace palmer)، رموزَهـا الإسلاميَّـة تفسيـرات مسيحيَّـة[٧]، ولعـلَّ النَّاقـد هـارو (Kenneth W. Harrow) فـي كتابـه (أوجُـه الإسلام فـي الأدب الإفريقي) (١٩٩١م)، والنَّاقد بانْغُورا فـي كتابه (الإسـلام والرِّواية الأدبيَّة بغـرب إفريقيا)[٨]، أهـمُّ مَـن نجحوا فـي تعرية هـذا النَّهـج الاستشراقي في الدِّراسات الأدبيَّة بإفريقيا.

ج- الفرنكوفونيَّـة (La Francophonie): وهي متعدِّدة الأبعـاد: سياسيَّة وثقافيَّة واجتماعيَّة، وتكمن خطورتهـا فـي محاولتهـا القضاء علـى كلِّ مـا يربط بين الأفارقـة، وجعْـل اللُّغـة والثَّقافـة الفرنسيَّة هـي الرَّابطة بينهـم، وتُرصَـد الجوائـز والميزانيَّات الضَّخمـة للتَّرويج للفكـر الفرنكفوني والرُّؤى الغربيَّـة المتطرِّفة عبر الفنون الأدبيَّة المختلفة، وخصوصاً فـي الشِّعر والرِّواية والقصَّة والسِّينمـا والمسرح، وهنا لا يقتصر التَّحدِّي على الإسلام

---

(١) Denham, D., Claperton, H., & Rudney, W. Travels and discoveries in Northern and Central Africa. London: J. Murray, 1831.

(٢) Hogben, The Mohammedan Emirates of Nigeria, Oxford, 1930.

(٣) E. W. Bovill. The Golden Trade of the Moors. Oxford University Press, 1958.

(٤) Hodgkin, Thomas. Uthman dan Fodio, The Origins of the Fulani Jihad in Nigeria Perspectives: A History. Oxford University. Press, 1960, 192.

(٥) Person, Yves. Samori: une révolution dyula, Volume 2, Dakar: IFAN, 1968.

(٦) Belinda, E. Jack. Francophone Literature: An Introductory Survey, Oxford University Press, 1996, 11.

(٧) بمبا، آدم: روايات غرب إفريقيا الفرنكوفونية.. دراسة في المفهوم والأبعاد الإسلامية، كوالالمبور: مركز الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للنشر، ٢٠١٣م، ص (٢٣-٢٤).

(٨) Bangura, Ahmed, Op. Cit.

وحـده، وإنَّما الأدب الفرنكوفونـي مشروعٌ يهدف لنسف ما يُعرف بالأدب ما بعد الكولونياليَّة (Post-Colonial Literature) برمَّته، كما أنَّ الفرنكوفونيَّة بمشروعها العـام تهـدف لـوأد حركـة إزالـة الكولونياليَّـة (De-Colonization) في جميع الميادين.

ومن الإنصـاف الإشارة إلى أنَّ كثيـراً من الدَّارسين المستشرقين في التَّاريخ والأنثروبولوجيا والأدب، وغيرها مـن الميادين العلميَّة، قـد خدموا– وما زالـوا يخدمون– تلـك العلوم في السِّيـاق الإسلامي الإفريقـيِّ، وكانوا أكثر إنصافـاً ومنهجيَّة بقَدْر الإمكان، بـل إنَّ منهم مَن يُعَدّ من أشدِّ المعارضيـن للطُّروحات الاستشراقيَّـة الاستعماريَّة، مـن أولئك: المـؤرِّخ هيسكتْ، صاحـب الدِّراسات الرّائدة عن الإسـلام بنيجيريـا، منهـا (١٩٧٣م): (سيف الحق: حيـاة الشيخ عثمـان دان فوديـو وزمانه)، ومـورايْ لاسْت في كتابـه (١٩٧٠م): (الخلافة الصُّكتية)، وج. هونْويك، وهـو رائد التَّاريخ الصُّونغائي، ومـن طلائع دراساته كتابُهُ (١٩٦٧م): (حـركات الجهاد في القرن التَّاسع الميلاديِّ: ألْفُ عام من تاريخ غرب إفريقيا).

ختاماً:

هذا التَّناغُم بين الدِّراسـات الاستشراقيَّة والأهداف الإمبرياليَّة أسفر عن نتائـج عميقة متشعِّبة، لا يكاد يسلم منهـا أحدٌ من المُستعْمَرين، ولعلَّ الدراسة الرَّائدة للمفكِّر فرانْـز فانـون Fanon، Frantz: (جلد أسوَد، أقنعة بيضـاء) (٢٠٠٨م) أدقُّ دراسـة في رصد آثـار الاستعمار وتأثير أيديولوجيَّاته في نفسيَّة الشَّخصيَّة المُستعْمَرة.

ولعلَّ إحدى إفرازات تلك الدِّراسات الاستشراقيَّة في المجتمع الإفريقيِّ ظهور ما يُعرف بـ«الطَّبقة المثقَّفة ثقافةً غربيَّـة» (Colonial Western-Educated Elite)، وهـي الطَّبقـة التي تـمَّ تشكيلهـا فكريّاً، فلم تعد مجرَّد مقلِّد للغرب، وإنَّمـا غدَتْ متشرِّبة لرؤية العالَم الغربيَّة، وفق ما يخدم الهيمنة الاستعماريَّة الغربيَّة.

هذا، ولا نكاد نجد فـي المجتمعات المسلمة بإفريقيا حركـةً فكريَّة حقيقيَّـة مناهضةً للاستشـراق الإمبريالي، ولعـلَّ المفكِّـر علي مزروعـي، ومجموعـةً مـن المفكِّرين والرِّوائيِّيـن والأدبـاء الأفارقـة، ممَّـن يوصَفـون بأدبـاء «حركـة مناهضـة الاستعمـار» (Anti-Colonial Writers)، هُـم وحدهـم الواقفون في خـطِّ الدِّفاع الأوَّل ضـدَّ الاستشـراق الإمبريالي، مـن أولئك على سبيل المثال: شيخ أنتا ديوبْ، وحميدُو كانْ، وكينْ بوغولْ، وياَمْبو ألوغْيومْ، وأحمدو كروما، وأمثالهم.

وفـي رأينـا؛ أنَّ الحـلَّ المتوفـر بحوزتنا، فـي الوقت الرَّاهـن فـي مواجهـة الدِّراسـات الاستشراقيَّـة، قديمها وحديثهـا، هـو تعضيدُ هـذا الخـطِّ الدِّفاعيِّ الـذي شيَّده المثقَّفـون المسلمون المناهضـون للاستعمار، ونُشدِّد هنا على «المسلمون»؛ لأنَّ غيـر المسلمين المنطلقين من رؤية «مركزيَّة إفريقيَّة» (Afro-Centric Writers)، وإنْ كانـوا مـن ألـدِّ خصـوم الإمبرياليَّة، فـإنَّ لهم كذلك مآخـذ جوهريَّـة على الإسـلام وتاريخه بالقـارة، ومنهم: موليفي كيتي، وسوينْكا.

ولعلَّ خير مَنْ يتولَّى هذه المهمَّة التَّعضيديَّة للمثقَّفين المسلميـن المناهضيـن للاستعمار بإفريقيـا: الجامعات الإسلاميَّة الفتيَّة التي أصبحت تكثُرُ بشكلٍ ملاحظ، وذلك بتنسيـقٍ هادفٍ واعٍ بينهـا في جميع مناهجهـا ومقرَّراتها ونتاجهـا المعرفيِّ، ومخرجاتها من الكوادر العلميَّة الشَّابة بإفريقيا ■